الجانب الإلهي وأثره علي الجانب الأخلاقي في فكر الإمام أبي حامد الغزالي

إعداد الباحث

إبراهيم نجيب إبراهيم سليمان

باحث دكتوراه

كلية الآداب - قسم الفلسفة - جامعة السويس

الملخص العربي:

يمكننا في هذا البحث التأكيد علي أن الأخلاق لا تنفك عن الجانب الإلهي، ولقد أكد علي هذا المفهوم الإمام أبي حامد الغزالي في كتبه، بأنه هناك ترابطً وثيقًا بين الجانب الإلهي والجانب الأخلاقي، من حيث المصدر والمنهج والهدف ، بل تتميز الأخلاق الإلهية عن المجهودات البشرية بأمور، منها علي سبيل المثال مراعاتها لمقتضي الحال، وتحدَّث البحثُ عن أن الأخلاقِ بجملتها تتصل اتصالًا مباشرًا بالجانب الإلهي، حيث قال النبي الكريم " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" رواه الإمام أحمد، ففي حقيقة الأمر نجد أن من وراء بعثة الأنبياء والرسل أسبابًا عدة، منها تعليم الناس الصناعات والحرف والأخلاق والآداب، التي بها يتعايش الإنسان مع كل من حوله؛ لينتج من وراء ذلك أنسًا ومؤانسة وتعاونًا يترتب عليهم بناء مجتمع قائم علي حفاظ حقوق الآخرين؛ ليصبح كل فرد مطمئنًا علي نفسه وماله وعياله، كما حث الحديث الشريف حيث قال صلي الله عليه وسلم:" إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت" متفق عليه، فتتعلق الأخلاقُ بالجانب الإلهي من حيث أنه مصدرُها باعتبارِها فطرةً فطرَ الخالقُ الناسَ عليها ليتحقق تعميرُ الأرض كما أراد الخالق، مما يثبت نتيجة ما توصل إليه البحث من الربط بين الجانبين الإلهي والأخلاقي عند الغزالي.

Abstract:

In this research, we can confirm that ethics is inseparable from the divine aspect, and this concept was emphasized by Imam Abu Hamid Al-Ghazali in his books, that there is a close interrelationship between the divine aspect and the ethical aspect, in terms of source, method, and goal. Rather, divine ethics are distinguished from human efforts by things including, for example, its observance of the exigencies of the situation, and the research talked about that morals in their entirety are directly related to the divine aspect, as the Noble Prophet said, “I was sent only to perfect morals.” Narrated by Imam Ahmad. People are the industries, crafts, morals, and morals in which a person coexists with everyone around him to produce out of that people, sympathy, and cooperation. They must build a society based on preserving the rights of others, so that each individual may be at peace with himself, his money, and his dependents, as the noble hadith urged, where he, peace and blessings of God be upon him, said: “Your blood is your blood.” And your money and your honor are forbidden to you as the sanctity of this day of yours in this month of yours, in this country of yours, have you not reached” Agreed upon. The life of the earth is as desired by the Creator, which proves the result of the research findings, regarding the link between the divine and ethical aspects according to Al-Ghazali.

المقدمة:

إن الإلهيات إثباتُها وبيانُها والدعوةُ إلي اعتقادها، كلُ هذه كانت الوظيفةَ الأولي لكلّ نبيٍ ورسولٍ جاء بدينٍ صحيح،، ومن دلائلِ وجود الله تعالي، إرسالُ الأنبياء والرسل، وتأييدُهم بالمعجزاتِ لتعليمِ البشرِ ما خفي عنهم من صناعاتٍ، وحرفٍ لتعميرِ الأرض، ومعاملاتٍ تقتضي وجودَ قوانينَ لتسيير تلك المعاملات دون جَورٍ أو تعدٍ علي تلك الحقوق، وهذه القوانين بجملتها ما هي إلا أخلاق، والتي تعددت بتعدد تنزلات الوحي علي الأنبياء والرسل، والقرآن كتاب الإسلام ترجمة بينة لهذه القضية، وهو يتناول في كثير من آياته موضوع الإلهيات، إثباتًا وبيانًا ودعوةً مُبرّرًا تنزيهَ الله تعالى عما يتصفُ به خلقُه، في سياقٍ يعطي انطباعًا بالمباينة بالعلوّ في المنزلةِ الكمالية.

وأود أن أشير هنا إلي أن المفهومَ للجانبِ الإلهي، لم يظهر دفعةً واحدةً عند مفكري الإسلام، ولكن عندما ظهرت أولًا الألوهية من جانب الأفعال عند توفر ظروف أو عوامل سياسية، وجهت العقل الإسلامي إلى بحث قضية أفعال الله، وأفعال العباد، والصلة بينهما، فظهرت اتجاهات الجبر والاختيار ثم الكسب، ولما دخل في الإسلام بعضُ المنتسبين إلي ثقافات أجنبية مختلفة، ظهرت الألوهيةُ بين الذاتِ والصفاتِ، ولمَّا أخذت البدعُ طريقَها إلي الظهورِ في المجتمعِ المسلمِ وابتعدوا عن الأخلاقِ، ثم برزت قضيةُ التوسل، ظهرت ألوهيةُ العبادة، وبذلك تكاملت جوانبُ البحث في قضيةِ الألوهية.

والناظر والمحقق في تاريخ الفكرِ العقدي عند المسلمين يدرك في يسر أن مذاهب المسلمين وفرقهم، قد ظهرت مع اختلاف أنظارهم إلي الجانب الإلهي، وتباين مناهجهم في تحديد مفهومها، فهُم بين منزهٍ ومشبهٍ، أو جامعٍ بين التنزيهِ والتشبيه، أو هم بين معتمدٍ علي النقل والعقل، أو لاجئٍ إلي الذوق والمواجيد والكشف، ولهذا كان لزامًا علي المشتغلين بدراسة الفكرِ

العقدي الإسلامي وتطوره، ودراسة الفرق والمذاهب الإسلامية، أن يضعوا نصب أعينهم ذلك الدورَ الرئيس، والأثرَ الجلي الذي كان لمفهوم الجانب الإلهي في تطور الفكر العقدي وأثرهِ في الجانب الأخلاقي،

وهنا تتجلي **أهميةُ البحث** وإماطةُ اللثام عن غايتِه أو هدفِه، فهو بحث يتوخى دراسةَ مفهومِ الجانبِ الإلهي عند الغزالي، وأثرَه في الجوانب الأخلاقية، فهذه بعضُ الرؤى والتأملات في واقع خطابِنا الإسلامي، والتي تبناها علماء مجددون من أمثال هذا الإمام، لعلها أن تعيدَ بوصلةَ الاتجاهِ للمسارِ الصحيح قبل فواتِ الوقت وذهابِ السائر..

ففي القرن الخامس الهجري ظهر الإمامُ أبو حامد الغزالي[1] ، وهو بإقرارِ علماء المسلمين وغير المسلمين نابغة عصره مما لا ينبغي غض الطرف عنه، وقد نبه الغزالي العالَم من حوله لمعنى الألوهية بمفهومها الدقيق، ولعل قضية الألوهية من أهم القضايا، بل أول قضية أراد أعداء الإسلام النيل منها، ولم يكن هذا الكلام وليد اليوم، بل ارتبطت في علم الكلام القديم بالرد علي طوائف عدة أرادوا هدمها، إما لرفضهم فكرة وجودِ إلهٍ أصلًا كالملحدين، أو رافضينَ لفكرةِ التوحيد كالإثنينية والتثليث .

واحسب أن مثلَ هذا البحثَ سوف يُلقيِ الضوءَ علي تطورِ الفكرِ العقديِ عند الغزالي، وأثرِ ذلك علي الجانبِ الأخلاقي،

من هنا جاء اختياري لموضوع دراستي للأسباب التالية:

أولا- إننا بحاجة إلى دراسةِ آراء الإمام، لأهميتها في الجانب الإلهي وعلاقته بالأخلاق، وخاصة في هذه الفترة الزمنية العصيبة التي تعيشها الأمة بخصوص هذا الاتجاه العقدي وأثره في الأخلاق، مما يؤكد وجود الحاجة إلي هذا النوع من الدراسة.

ثانيا– الوقوف على الحقائق الفكرية، لمنهج الغزالي بتعمق، إذ أنها تمثل منعطفًا خطيرًا، في تاريخ الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا ليستفيد منها الجيلين الحالي والقادم،

ثالثا- تقديم رؤيةٍ إسلاميةٍ واضحةٍ لأخطر القضايَا الفكريةِ، وهي قضيةُ الألوهيةِ وعلاقتُها بأفعالِ العبادِ الأخلاقيةِ، والتي من شأنها استقرارُ أركانِ المجتمعِ من خلال معالجةِ الإمامِ لها، وخاصةً في ظل تردي واقعِ العالمِ الإسلاميّ، فكان من الضروريِ تناول مجهودات المصلحين، بناء علي تجاربهم في توجههم الإصلاحي.

خامساً - الكشف عن كنوز المعرفة عند الغزالي، فقد خلف كل لنا ثروة غالية من جهود ومؤلفات، وكانت غايته هي الدفاع عن العقيدة الإسلامية.

سادساً– إن منهجَ الغزالي في تناوله الموضوعاتِ والقضايا الفلسفيةِ أو الكلاميةِ، منهجٌ جديرٌ بالدراسة، لأنه يتسم بالجدَّةِ والسلاسةِ في نفسِ الوقتِ، فنزعتُه هذه لابد أن تثمرَ موقفًا متميزًا في الدراسةِ والبحثِ، تُجبر خصومَه للجذبِ والانتباه، فأثَّرت تأثيرًا ملحوظًا جديرًا بالدراسةِ والبحثِ

المنهج المتبع البحث :

لما كان المنهج هو الطريقة العلمية لأي بحث لدراسة موضوع ما، فقد تعددت المناهج وتنوعت أنواعًا كثيرة، ولزم كل باحث أن يستعمل المنهج الذي يتفق مع موضوع بحثه، فإن لم يوفق لهذا جاءت نتائج أبحاثه مشتتة، وتفقد تمام الفكرة، ولذلك فقد اعتمدت في الدراسة علي المناهج الآتية:

- المنهج التحليلي: لما فيه من التحليل لفكر الإمام الغزالي وجهودِه في تجديد الفكر الإسلامي، واستخراج القضايا الفكرية من خلال مؤلفاته، مع القيام برصد الأفكار والآراء وتحليلها.

- المنهج المقارن: ويعتبر هذا المنهج من المناهج الأساسية التي سوف يتمُّ الاعتمادُ عليها من خلال دراستنا، من خلال عقد مقارنات بين فكر الإمام وغيره من أصحاب الرؤى المختلفة، لبيان أوجه الشبه والاختلاف في فكرهما، مما يساعِد علي إثراءِ البحثِ ووضوحه.
- المنهج التاريخي: يعتمد هذا المنهج علي تتبع الحركة الفكرية للإمام؛ لبيان أثر التغيرات الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، التي عاصرها الإمام، فقد جمعت بين المنهج التحليلي والمقارن، حتى يمكن الكشف عن أكثر الجوانب الفكرية عن قضايا الألوهية، وأثرها علي الجانب الأخلاقي عند الإمام الغزالي، ومدي أثر الجانب الأخلاقي للمجتمع بصورةٍ أشدُّ عمقًا ووضوحًا، وقد استعنت بالمنهجِ التاريخي أيضًا في بعض الأحيان لبيان مكانةِ رؤية الإمام مع المصلحين والمجددين المسلمين، ومدي تلاقي أفكارِهم أثناء عمل البحث،

رابعاً- الأهداف المرجوة من الدراسة:

أعتقد أن حديثي عن أهميةِ دراسةِ هذا الموضوع ودوافِعه، قد كشف اللثامَ عن كثير من أهدافِ دراستها، لكن هذا لا يعفيني من إفراد هذه الأهداف بالعرض ولو موجزًا، ويمكنني أن أوجزها فيما يلي:

أولا- أود بيانَ أن مفهومَ الجانبِ الإلهي عند الغزاليِ قد اعتمدَ على الأدلةِ النقليةِ التي وردت في كتابِ الله تعالى، وسنةِ نبيه صلي الله عليه وسلم، للردِّ علي من ينكرُ وجودَ إلهٍ .

ثانيًا- بيانُ تطورِ هذا المفهومِ وأثرُهُ في تطورِ الفكرِ العقدي عند المسلمين قديمًا وحديثًا، بتثبيت أركان العقيدة؛ بأدلةٍ عقليةٍ يقينيةٍ لإثبات وجودِ الله تعالى، ووحدانيتِه، وعلاقتِهِ بالأخلاق.

ثالثاً- بيانُ دورِ الجانبِ الإلهي في الحياةِ الإنسانيةِ، وتحديدُ العلاقاتِ الأصيلةِ بينهمَا، مع محاولةِ الإجابةِ عن بعضِ التساؤلاتِ التي تشغل الباحثينَ وتستثير همَّتَهم .

رابعًا- ما الصلةُ بين الجانبِ الإلهي والجانبِ الأخلاقي عند الغزالي؟ إذ الناظرُ في تاريخِ الفكرِ الإسلامي يجدُ كثيرًا من رجالاته العظامِ قد ربطُوا ربطًا وثيقًا بين الجانبين.

ومن الملاحظ أن هذه التساؤلات تتعلق بحقلي علم الكلام والأخلاق، مما يجعلُها حرية بأن تضافَ إلى بواعثِ دراسة هذا البحث.

ومن هذا المنطلقِ وجدنا أنه لا بد من إلقاءِ الضوءِ أولًا على مشكلةِ الألوهية لبيانِ أهميتِها باعتبارِ التشريع السماوي هو المصدرُ الأساسيُ للأخلاقِ، وهذه القضيةُ ـ الألوهيةُ ــ هي مقدمةٌ لقضيةٍ أُخري، وهي أثرُ الأخلاقِ في حياةِ البشرِ كما يراها الغزالي.

أولًا: مفهوم الألوهية

تعتبُر مشكلةُ الإلوهية من أعقدِ القضايا الميتافيزيقيةِ وأقدمِها، عالجها الإنسان أولًا على الفطرة ثم أخذ يتعمق فيها ويفلسفها، فأضحت موضع بحث متصل من رجلِ الدينِ والأخلاق، من العالِم والفيلسوف، وهي فكرةٌ ساميةٌ بسموِّ موضوعِها، وتُعدُ قطعًا من أَسمي الأفكارِ التي وصل إليها الإنسانُ، وقد هداهُ إليها مجتمعُه وبيئتُه، أو نظرُه وتأمُله، أو ما أُنزل عليه من وحيٍ وإلهامٍ، [2]

وفي فكرة الألوهية وجد الإنسانُ نفسَه ووجَد خالَقه، عرف منها مصدر الخير والكمال، ومبعث الوجود والحركة ، فالله أصل الموجودات وعلة العلل وغاية الغايات،[3]

"فالله في رأي الإنسان هو الخالق لكل شيء، والذي لا يتم شيء إلا بأمره ولا يدوم إلا بحفظه، والذي يعلم كل شيء مهما صغر ودق، والذي أخرج العالم من العدم إلي الوجود، وخلق كل

شيء بلا واسطة من أحد من خلقه والذي له المثل الأعلى من الصفات التي ينطق بها القرآن في كثير من آياته" [4]

ويدعو الإسلامُ إلي معرفة الله تعالى، وإذا كانت هذه المعرفة تبدأ بعلم التوحيد، أي معرفة الواحد وصفاته فإن لها غاية أخري، ألا وهي العمل بمقتضي العلم والتقرب إلي ذات الله تعالى، وهكذا تتحول المعرفة إلي إيمان قلبي روحي ، فإذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الإنسان دنياه أكثر من دينه ، أما إذا دخل الإيمان باطن القلب فإنه يعرض عما سوي الله "والحق الذي لا يمارى فيه أن السلف الصالح لا يتجاوزون الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة في الذات الإلهية وصفاتها، فلا يقولون علي الله بغير علم، ويسألون عن الصفات هل هي عين الذات أم غير الذات[5] ولقد نبهنا القرآن الكريم إلي عناية الله بالكون واتصاله به، وأنه لا يعزب عنه شيء من الوجود، وينبغي ألا تُفهم هذه العناية أو هذا الاتصال علي أنه حلول أو اتحاد كما يذهب أصحاب هذه المذاهب، وإنما هو اتصال رعاية وعناية، وكما يقول المفكر محمد إقبال " ينبغي ألا يفوتنا أن ألفاظ القرب والاتصال والافتراق التي تنطبق علي الأجسام المادية لا تنطبق علي الذات الإلهية، فوجود الله يتصل بالكون كله علي مثال اتصال الروح بالبدن، والروح لاهي داخل البدن ولا هي خارجة، ولا هي قريبة منه ولا هي مفترقه عنه، لكن اتصالاً بكل ذرة من ذرات البدن حقيقة واقعة، ويستحيل أن نتصور اتصالها هذا إلا إذا افترضنا نوعاً من مكان يوائم رقة الروح ولطفها" [6] فالإيمان بوجود الله مسألة وعي قبل كل شيء، فالإنسان له وعي يقيني بالموجود الأعظم والحقيقة الكونية، لأنه متصل بهذا الوجود القائم عليه" [7] ومن هنا وجدنا أن عقيدة الألوهية تمثل العقد البارز لدي كل مفكر، وقد شغلت عقيدة الألوهية الإنسان منذ بدء وجوده علي الأرض، إذ ما من عاقل إلا ويتحرك بعقله نحو الملأ الأعلى، بغية الوصول إلي إجابات محددة حول الأسئلة التالية... من أنا؟ من أين جئت ؟ إلي أين المنتهي؟ ولم يجد الإنسان إجابة شافية إلا بالرجوع إلي الوحي، لأنه يمثل لب الإجابة عن كل التساؤلات العقلية، ومن

المؤكد أيضاً أن الإنسان الأول برزت لديه الألوهية بروز المحتاج إلي قوة تنقله من العدم إلي الوجود الذي يرجع إلي الموجود المطلق [8]ولقد خلق الله عز وجل أول إنسان علي وجه الأرض، وهو آدم عليه السلام، مزوداً بعقيدة التوحيد مفطوراً عليها ، وبيان أن الذي يجب إفراده بالعبادة مع التأليه الكامل له هو الله سبحانه وتعالى ومن المعلوم أن أول نبي بعثه الله إلي البشر كان آدم، وقد بعثه الله إلي بنيه الذين عاش معهم[9]

فيجب الإيمان بوجود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفصيلًا فيما علم منهم، وهم المذكورون في القرآن الكريم محمد، وآدم، ونوح، وإدريس، وصالح، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، ويونس، وأيوب، وإبراهيم، وإسماعيل، وزكريا، ويحيي، وموسي، وعيسي، ومن ثم ثبت أن عقيدةَ الألوهية جاء بها النبيون ابتداءً من آدم أبي البشر حتى سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.[10]

إن الدينَ الإسلاميَ اشتملَ في تعاليمه علي عباداتٍ ومعاملاتٍ، فكانت كلُّها بمثابةِ أمورٍ توقيفيةٍ من عند الله، بوحي علي النبي الكريم، فكان من بين تعاليمِ السماءِ التأكيدُ علي وجودِ اللهِ ووحدانِيَّتِه وقيُّومِيَّتِه، وأنه لا إله غيره، ودلَّل الكتابُ الكريمُ علي هذه القضيةِ بأدلةٍ عقليةٍ استعانَ بها علماءُ الكلامِ في توجيهِ الأنظارِ إلي فطريةِ دلالتها ،وأنها لا تتعارض مع العقلِ، كقوله تعالي:" لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" [11] ففي هذه الآية الكريمة خاطب القرآنُ العقولَ بأنَّ من البديهي العقلي، أنه يستحيلُ وجودَ أكثرِ من إلهٍ في الكونِ، ويَرجِعُ ذلك إلي أن تدبيرَ شئونِ الكونِ تقتضي وجودَ إلهٍ واحدٍ لا شريك له، يكونُ هو وحدَه صاحبَ التدبير، فلو افتُرِضَ وجودُ أكثرِ من إلهٍ لاصطدمت إرادتُهم في تدبيرِ شئونِ الكون، وكأنَّ القرآنَ يضربُ مثلًا واقعيًا من أمثلةِ الحياة، يعايشه الإنسانُ حتى ولو كان في حيّزِ الأسرةِ الواحدة ، فلا بد أن يكونَ لها راعٍ واحدٍ هو ربُّ الأسرةِ وإلا تفككت الأسرةُ الواحدةُ إذا لم يكن لها شخص واحد هو فقط صاحبُ القرارِ فيها، فإذا كان هذا الحالُ مع الأسرةِ البسيطةِ ذاتِ الأفرادِ المعدودةِ، فكيف الحالُ بالكون الفسيحِ؟ ومن بين مظاهرِ قيوميةِ الله عز وجل الخالق، أن ربط العقيدةَ بالعباداتِ والأخلاقِ،

متمثلةً في أوامرٍ ونواهٍ اشتمل عليها القرآن الكريم، فبين الثوابَ في فعل الخيرِ وأن الجزاء في فعلِ الشرّ، وهذا هو الأساسُ الأخلاقيُ، الذي بنيت عليه الأخلاقُ عند كلّ من تكلَّم في علمِ الأخلاقِ وبيَّن مفهومَها، كما سنتعرف علي هذا بعد قليل، ففي هذا البحث يتضحُ لنا مدي الربطِ بين الألوهيةِ والأخلاقِ عند الغزالي، من حيث أن الدينَ وحيٌ من عند الله، وقد اشتمل الدينُ علي أخلاقٍ هي من تعاليم شرائع السماء، وعند التحدُّثِ عن الأخلاقِ يجب أولًا أن نتعرف علي مفهوم الأخلاقِ عند أهل اللغةِ والاصطلاحِ للوقوفِ علي معناها الدقيق،

أولًا: مفهومُ الأخلاقِ في اللغة:

الأخلاقُ جمع خُلُق بضم الخاء واللام أي بضمتين كعُنُق وأعناق أو بضم فسكون كصُلْب وأصلاب[12]

ووردت كلمة الخُلُق في القاموس المحيط بمعني السجية والطبع والمروءة والدين والخلقة بمعني الفطرة[13]

مفهوم الأخلاق في الاصطلاح: اختلف فلاسفة الأخلاق في تعريفهم للخلق ولم يتفقوا علي تعريف موحد، وإنما تنوعت تعريفاتهم للخلق تبعًا لاختلاف طبيعته، والتعريفات الاصطلاحية قريبة المعني من المفهوم اللغوي، إلا أنها تعددت نظرًا لاختلاف مفهوم الأخلاق بين تعريفاتها لدي الاتجاهات والمذاهب المختلفة، وتنحصر اختلافاتُهم في اتجاهين: اتجاه الإسلاميين واتجاه الفلاسفة المحدثين.

أولاً: تعريف الخلق عند الفلاسفة المحدثين: " غير المسلمين "عرف بعضهم الخُلق بأنه عادة الإرادة[14]، كما يقول "كانت" أن الخلق نتيجة مجموعة أعمال الإرادة الحرة"[15]، ومما سبق يتضح لنا أن تعريفات الخلق لا تخرج عن حيز الهيئة النفسية، ويعتبر الخلاف هنا لفظي فقط،

ولكن هل يختلف مفهوم الأخلاق بهذا المعني عن معناه عند فلاسفة المسلمين؟هذا ما سنعرفه فيما يأتي:

ثانيًا: تعريف الخلق عند فلاسفة المسلمين:

تعريف الخلق عند فلاسفة الإسلام: أولًا عرف ابن مسكويه[16] الخلق بأنها" حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا راويه" وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

1) منها ما يكون طبيعيًا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدني شيء نحو الغضب، ويثور من أقل سبب.

2)ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدريب، وربما كان مبدأه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولًا في أول حتى يصير ملكةً وخلقا،[17]

تعريف الإمام الغزالي للخُلُق: عرف الغزالي الخُلق بأنها: عبارة عن "هيئه في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهوله ويسر من غير حاجه إلي فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا،[18]

ونرى أن الإمام الغزالي قد عرَّف الخلق تعريف يتضمن العنصرين الظاهري والباطني، وإذا كنا نجد ابن مسكويه يستشهد بكلام فلاسفة اليونان كأرسطو وجالينيوس ويتحدث عن الرواقيين ومن إليهم من الحكماء، فإننا نجد الإمام الغزالي يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم والتستري والمحاسبي ومن إليهم من الصوفية وربما نقل ما روي عن عيسى وموسى وداود ومن إليهم من الأنبياء.[19]

ومعنى ذلك أن الأخلاق انفعال بحركة الباطن وإرادته منبثقة من أوامر الشرع، فالغزالي في تعريفه هذا يرجع الأخلاق إلي فطرة راسخة في النفس مستندة علي عقل وشرع ،وهذا ما يؤكد علي مدي ارتباط الأخلاق بالجانب الإلهي في فكر الغزالي، ولذا قلنا: إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال علي النذور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهوله من غير روية، لأن من تكلف بذلك المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم، وبهذا التعريف الجامع يكون الإمام الغزالي قد ميز الحقيقة الخلقية عما عداها من هيئات النفس الأخرى، فهو يرى أن السلوك المتكلف لا يسمى خلقًا حتى يصير عادة، وحالة للنفس راسخة، كما أن الأفعال التي لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم، تخرج عن نطاق الأخلاق، فلا يقال لصاحبها أنه خيّر أو شِرّير، وبذلك يتبين الفرق بين الخُلُق والسلوك، فالخُلُق سلوكٌ مقوم بمعيار الخير والشر، كما أن السلوك لا يكون خلقًا إلا حين يصير عادةً يصدر عن صاحبه في يسر وسهوله.[20] فالذي يَصدُقُ مرةً لا يوصف بأن خُلُقَه الصِدق، وبالمثل من يكذِب مرةً لا يقال أنه خُلُقَه الكَذِب، بل العبرةُ بالاستمرارِ في الفعل حتى يصيرَ طابعًا عامًا لسلوكه.

وهكذا تتميز الحقيقةُ الخُلُقية عما عداها من الصفات النفسية، ولذلك فقد عبَّر عنها بالهيئة، وهي لا تكون خلقًا إلا إذا تحقق لها أمران:

1) أن تكون راسخةً في النفس أي ثابتةً و دائمةً
2) أن يصدر عنها الفعل بسهولة ويسر من غير حاجةٍ إلى فكرٍ وروية

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقول أنه ليس بين هذه التعريفات خلاف في معناها، وإن اختلفت الألفاظ في ما بينها قليلا، وتكاد تُجمع علي أن الخلق ليس إلا كيفيةً نفسيةً ثابتةً، تَصدُر عنها أعمالُ صاحبِها في جانب الخير، أو في جانب الشر، صدورًا سهلًا بغير معاناة، وهي في جملتها

تعريفاتٌ مقبولة، إذا حَمَلت بعضَ القيودِ فيها علي وجهها الصحيح، فالفضيلةُ كما قلنا لا تتحقق بعملٍ فاضلٍ واحد، ولكن لتكون حقيقةً ينبغي أن تكون نتيجة لماضي عملي طويل، وبهذا ترسخ في النفس تلك الهيئةُ التي نسميها خلقًا، وإذا لاحظنا المفهوم من التعريفين انتهينا إلى أن الخُلُق هو" نهاية العمليات النفسية التي يمر بها الإنسانُ حتى تصبح شيئًا عاديًا له، إذا كان تعريف ابن مسكويه و الإمام الغزالي يلاحظ فيهما الأساس النفسي للسلوك المقوَّمِ بمعيار الخيرِ والشرِ، فإن تعريفاتِ الفلاسفةِ المحدثين يلاحظ فيها الجانبُ النظري للأخلاق، ولذلك فقد اختلفت تعريفاتُهم باختلاف وجهاتِ نظر أصحابها في نشأة الأخلاقِ وغايتِها، فمجرد تحصيل قواعد العلم لا يجعل الإنسان ذا أخلاق حسنة.

السلوك وعلاقته بالخلق عند الغزالي وغاية الأخلاق الإسلامية:

أولًا: مفهوم الأخلاق الإسلامية: بعد ما سبق من بيان لمفهوم الأخلاق في اللغة والاصطلاح، ننتقل إلى تحديد مفهوم الأخلاق الإسلامية، ونجد أن كلمه خُلُق وردت بضم الخاء واللام في القران الكريم مرتين، قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ"[21] ، وقال تعالى :"إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ "[22]

فالأولى وردت في مقام المدح، والثانية وردت في وصف ما درج عليه الأولون، كما أن الأولى جاءت معيارًا لما ينبغي أن يكون، والثانية أتت وصفًا لما هو كائن[23]

وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل السيدةَ عائشة عن خُلقهِ صلي الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن"[24] وعلي هذا فالأخلاق بمعني الدين، عبارة عن نظام من العمل، غايته تحقيق الحياة الطيبة ، ونمط من السلوك مع النفس والغير، من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك، كما أنها ليست جزءًا من الدين فحسب؛ بل ثمرته وروحه؛ لأن الدين في مضمونه عبارة عن الواجبات التي يلتزم بها الإنسان نحو الله، ونحو نفسه وغيره من المخلوقات، وما

ينبغي أن يكون لا يؤخذ إلا من الوحي، فقد جاءنا من الله رب العالمين لا من أحد من الناس أجمعين" ولما كان الإسلام هو الدين الحق الذي قام على دعائم العقيدة والشريعة والأخلاق دون فصل بينهم فقد أقام منهجًا أخلاقيًا لبناء الإنسان" [25]

وبناءً علي ذلك فالأخلاق الإسلامية عبارة عن قوة ذاتيه تتمثل في المبادئ والقواعد المنظمة لسلوك الإنسان التي يحددها الوحي الإلهي فهي إذًا قوة مركوزة في فطرة الإنسان تستمد مقوماتها من مصدر أعلى لتنظيم حياته على نحو يحقق الغاية من وجوده، والإسلام عقيدة وشريعة، تنظيم إلهي لسلوك الإنسان وأعماله، فمن الطبيعي أن يكون أساس هذا التنظيم الإلهي شاملا لدخائل النفوس ملبيا لحاجتها معالجا لما بداخلها، ومن جهة أخرى فكما يكون شاملا للنفوس يكون ملائما لحاجات النفوس في أي زمان كان وفي أي مكان يوجد وذلك أمر بديهي طالما كان الوحي الإلهي الثابت المحقق بتلك النفوس علي اختلاف اتجاهاتها هو الأساس لهذه القوة، فالأخلاق في مفهوم الدين الحق المنزل من عند الله هي ضوابط لتزكية النفس وترويض الغرائز والسمو بها[26] قال تعالى :

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿7﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿8﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿9﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿10﴾ "

ومن هنا ندرك أن للأخلاق الإسلامية جانبين:

الجانب الأول: جانبٌ إلهيٌّ، من حيث أنه مرادُ اللهِ، إذ أنه يجب أن يتبعَ الإنسانُ في هذه الحياةِ نظامًا محددًا، ولذلك جاء الوحي بصورةِ هذا النظام، وطَلَب من الإنسان أن يشترك في تطبيقه، بقلبه، وروحه، وبإرادته الخيرة الخالصة لوجه الله، مع سلوكه الظاهري،[27]

ومعنى هذا أن الأخلاقَ الإسلاميةَ لن تكونَ والحالُ هذه مرهونـةٌ بزمـانٍ معينٍ، أو مكـانٍ معينٍ، ولم تقتصر ثمراتُها على بعض الأُمَمِ، أو على بعضِ الأزمِنَـةِ، بل هـي عامـةٌ شـاملةٌ، مصـدرُها الوحيُ الإلهيُ. [28]

الجانب الثاني: جانبٌ إنسانيٌ، وعلى ذلك فللإنسان مساهمةٌ وجهدٌ ودخلٌ في تحديدِ هذا النظـامِ من الناحيةِ العمليةِ، فالأخلاقُ الإسلاميةُ نظـامٌ من العمل من أجل الحيـاة الخيـرة، وهـي السياج الذي يحمي صاحبَه من أن يقدم العمل، أو يأتي فعلًا لا يستريح إليـه الضـميرُ الحـي، ولا تطمئنُ إليه النفسُ الطيبة[29]

فهـي أخـلاقٌ متكاملـةٌ لا تفـرق بـين نظريـة ولا عمليـة يقـول الـدكتور فـؤاد الأهـواني: "الأخـلاق نظرية وعملية ولم ينص الإسلام علـي أخـلاق نظريـة منفصـلة يتبعهـا السلوك العملـي، و يستمد قوته من تلك النظريات المقررة، وإنما رسم للناسِ فوائدَ العملِ الصـالحِ الـذي ينبغـي أن يسيروا عليه"[30]

ومرجع المسلمين في ذلك هو القرآن الكريم أولًا، ثـم السـنة الشـارحة والموضـحة للكتـاب بعده، فالنظرية والعمليـة فـي الأخـلاق الإسـلامية أمـران متلازمـان بالضـرورة، فلابـد أن تكـون عمليـةً حتـى تـتم الفائـدةُ مـن بيـان القيمِ والمبـادئِ الأخلاقيـة، وتـؤتي ثمرتهـا فـي الحيـاة، ولابـد أن يقـوم الجانبُ العملي على أساس من النظر الدقيق لتحديدِ المُثُلِ العليَا والقيمِ الأخلاقية[31]

ولهذا فقد نص الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم علـى أن الإيمـان عقيـدةٌ وعمـلٌ، فقـال عنـدما سـأله رجلٌ: أيُّ العملِ الأفضلِ فقال: "إيمانٌ بالله وجهادٌ في سبيلِه"[32]

فهو عملٌ إيجابيٌ من أعمالِ القلبِ لأنـه يجعلُ سلوكَ المرءِ وحدةً لا تتجزأً، بـل أكثـر مـن هـذا، يوحد بين سلوكه الخارجي الظاهر، وبين إيمانِـه البـاطن وعقيدتـهِ الداخليـةِ بـين التصـديقِ بالقلـبِ وعملِ الجوارح ،[33]

ولقد بلغ من عناية الإسلامِ للأخلاقِ، ما نراه ماثلاً في قولهِ صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ" [34]

ومن هنا نقول أن الأخلاقَ الإسلاميةَ هي ثمرةُ الإسلامِ ورُوحُه الساريةُ في جميعِ جوانبه، فالنظامُ الإسلاميُ عمومًا مبنيٌ على فلسفتهِ الخلقيةِ أساسًا.

ولقد قَصَر النبيُ صلى الله عليه وسلم أهدافَ رسالتهِ في هذا الحديث السابق على الأخلاق، ونفهم من هذا الحديث أن بيان مكارم الأخلاق، كان الغايةَ والهدفَ للأنبياءِ السابقين، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لأتمِّمَ، وعلى ضوء هذا نقرر:

أولًا: أن الأخلاقَ الإسلاميةَ كانت دَعواتُ الرسلِ جميعًا من قبلِ النبي صلى الله عليه وسلم

ثانيا: أن الغايةَ من رسالته صلى الله عليه وسلم تتممة مكارمَ الأخلاقِ كما نص الحديثُ على ذلك.

ثالثا :منزلةُ وأهميةُ الأخلاقِ الكريمةِ بالنسبةِ للرسالة والمجتمع مهمةُ ولا يجبُ إغفالَها [35]

ومن هذا المنطلق، كانت عناية الإسلام عقيدةً وسلوكًا بالأخلاق، ذلك لأن الأخلاق هي الجانب التطبيقي للمسلم في سائر علاقاته، وسمُّوهُ بهذه العلاقاتِ هو الهدفُ الأساسيُّ للدينِ، وهذا الفهمُ يؤكده قوله تعالى:

" إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)[36] فلقد كانت الأخلاق دائما وأبداً طبيعتها في الهدي والإرشاد محل التركيز في دعوات

الرسل، بل لقد كانت الغاية من الرسالات السماوية، فهي الميزان الدقيق والمعيار الذي لا يخطئ في بيان دخائل النفوس وكشف نوايا القلوب وسلامة الدين وصحة الاعتقاد، وفي مجال التطبيق أن الله سبحانه وتعالى قد اختص الأنبياء والرسل بالمزيد من التحمل والصبر علي الإيذاء وسائر أنواع البلاء، فنجد أن للرسالات الإلهية كلها هدف أخلاقي، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: " الدين حسن الخلق " وفي الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما الدين قال صلى الله عليه وسلم حسن الخلق ولما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان خلقه القران "[37] ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الطابع الخلقي كان واضحا في أذهان الصحابة رضي الله عنهم منذ الأيام الأولى لدخولهم تحت راية الإسلام، فلم تغب عنهم سمات الإسلام الخلقية التي أودعها الله تعالى عقائد الإسلام وشرائعه ، بل إنهم كانوا يدركون نعمة الله عليهم فيما يتضمنه هذا الدين من مكارم الأخلاق فسارع المسلمون الأوائل يحذون حذو النبي ويتبعون سيرته ويتقصون شمائله ــ كما هو معلوم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم ــ ومن هنا فقد بذلوا الجهود الصادقة في سبيل تحقيق تلك الأخلاق واستيعاب هذه المبادئ والقيم التي أصبحت لهم نبراساً وصارت منهجاً في القول والعمل .[38] ويمكن أن نستخلص ذلك من حديث جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حين قام يشرح لملك الحبشة ـ النجاشي ـ خصائص الإسلام الذي من أجله حاربهم المشركون في مكة حتى اضطروهم إلي ترك ديارهم وأوطانهم حيث قال: "كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا علي ذلك حتى بعث الله إلينا رجلاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلي الله لنوحده ونعبده،وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات"[39] وندرك ذلك أيضاً في حديث القرآن الكريم عن النماذج العليا والمثل الرفيعة التي امتثلت لقيم الإسلام،

وطبقت مبادئه وتعاليمه، فكانت أهلاً لثناء الله سبحانه وتعالى عليهم ووعده لهم بالثواب فقال تعالى:

" لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ"[40]،

ومن هنا كان إطلاقُ الأخلاقِ علي الدينِ في اللغةِ والاصطلاحِ كما سبق، وليس هذا الفهمُ الذي عرضناه مفروضًا علي الإسلام أو غريبًا عنه، بل روحُ الإسلامِ عقيدةٌ وشريعةٌ هي روحٌ أخلاقية، وهدفُ الإسلامِ في الحياةِ تحقيقُ غايةٍ أخلاقيةٍ، فهذه روحٌ نجدها في كل جانبٍ من جوانبِ الإسلام، فلقد جمعتْ العقيدةُ الإسلاميةُ قواعدَ الأخلاقِ وحددتَها أدقَّ تحديدٍ حيث قال تعالى:

" قُلْ إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"[41]

وأصحاب الخلق هم هؤلاء الذين يمتثلون لأداء تلك الواجبات السابقة في جانبي الأوامر والنواهي، وعلي ضوء هذا، فإن القرآن الكريم عرض لكل هذا بطريقتهِ الخاصةِ في كثيرٍ من آياته، ولكن آيةُ البرّ فيما نري تجمَع خلاصةَ الكمالاتِ الإنسانية[42] فعقيدة الإسلام إذن هي إيمانٌ بالله وسلوكٌ طيبٌ بين الفرد والجماعة الإنسانية وبين الفرد ونفسه ، فهي إيمان بالله، وعملٌ صالحٌ طيب، يؤجر عليه المؤمن في دنياهُ وآخرتِه، فمن آمن وأصلَح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولذا فقد اعتبر الإسلام الإيمان برًا ،وبعد هذا البيانِ للأخلاقِ الإسلاميةِ يمكُننا أن نقول: "إن الأخلاق الإسلاميةَ هي القواعدُ المنظمةُ لسلوكِ الإنسانِ في الحياة، سواءَ كان هذا

السلوك ظاهرًا، أو باطنًا، يصدر من الإنسان بإرادةٍ، ويهدف إلي تحقيق غاية، فهي بذلك تعتبر ثمرة الدين الذي يشمل الاعتقاد والسلوك، فالأخلاقُ الإسلاميةُ أخلاقٌ متكاملةٌ شاملةٌ لمبدأِ التدرجِ والتناسقِ التكاملي الشامل للإنسان، وذلك من أي ناحيةٍ نظر إليها، فلقد تكررت الأحاديثُ في مدحِ حسنِ الخلقِ في أكثرِ من موضعٍ كقوله صلي الله عليه وسلم "مِنْ أكثرِ ما يدخلُ الناسَ الجنةَ تقوى اللهِ وحسنُ الخلقِ" وقولُه أيضًا " أن مِن أحبِكم إليَّ وأقربِكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسِنُكُم أخلاقًا" [43] فالأخلاقُ هي علمُ الفضائلِ وكيفيةُ اكتسابِها، ليتحلى بها الإنسانُ، وعلمٌ بالرذائلِ وكيفيةُ توقِّيها ليتخلى عنها، ومن هنا، فإن الأخلاق الإسلامية معيارًا لما ينبغي أن يكون، وليست وصفًا لما هو كائن، كدراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق، للدراسات الأكاديمية دون التطبيق العملي، فالإيمان كما قال الحسن البصري "ما وقر في القلب وصدقه العمل" [44] ومن كلِّ ما سبق يتضح لنا أن الأخلاقَ موضُوعُها أعمالُ الإنسانِ الإراديةِ، حيث تنقسم أعمالُ الإنسانِ إلي ثلاثةِ أقسام:

1-أعمالٍ إرادية

2-أعمالٍ غيرِ إرادية

3- أعمالٍ آخذةٍ بشبهةٍ بين الإراديةِ وغيرِ الإراديةِ

فالأخلاقُ تهتمُّ بالأعمالِ التي تصدُر من الإنسانِ عن قصدٍ واختيارٍ لإدراكِ صاحبِها وقتَ عمَلِهَا ماذا يَعمل.

وغايةُ الأخلاقِ الإسلاميةِ هي تحقيقُ السعادةِ النفسيةِ والطمأنينةِ القلبية للإنسان وتهيئة الحياة الآمنة الرياضية

التطبيقات الأخلاقية النظرية والعملية عند الغزالي

طريقة تهذيب الأخلاق عند الغزالي: يُعد الأساسُ الأخلاقيُّ المستَمدُ من الكتابِ والسنةِ، أحدَ تلك الأُسسِ في فكرِ الغزالي، ونراهُ قد سيطرَ على قسطٍ لا يستهانُ به من مصنفاتهِ الأخيرة، حتى ذهب بعضُ الباحثينَ إلى أن الغزالي، هو الذي دوّن علم الأخلاق الإسلامي وفلسفته، وإن كان قد اقتبس واستفاد من مختلف الدراسات الفلسفية في هذا الموضوع،[45] فكانت عقيدة الغزالي قوية فيما يمكن أن تؤديه التربية الخلقية من تعديل للطباع، وتهذيب للأخلاق، وبين في كتابه كثير من المناسبات أن عملية التربية ما هي إلا عملية تفاعل بين الفطرة والبيئة، ونراه قد انتقد أصحاب الرأي القائل بأن طبيعة الإنسان لا يمكن تغييرها بقوله إنهم كسالي ومتواكلون، فإنهم يستصعبون عملية تهذيب الصغار وتحسين خلقهم، مستدلين علي ذلك بأن خلقة الإنسان أو شكله الظاهري لا يمكن تغييرهما ، فلا يمكن أن يجعل الطويل قصيراً ولا الدميم جميلاً، لكن الغزالي رأي أنه لو كان تغيير طباع البشر غير ممكن ، لأصبح النصح والإرشاد عديمي الجدوى، بل لأصبحت التربية عموماً غير ذات شأن فيقول: " لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات "[46] ويتضح هنا رأي الغزالي في ما يمكن أن تفعله التربية من إصلاح وتكميل وتهذيب لخلق الأفراد وتطهير النفوس، ولما كان من الممكن تغيير طباع الحيوان بالتدريب والتهذيب ، فيصبح الحيوان المفترس مستأنساً ، ويدرب علي طباع معينة ، فإن تغيير طباع الإنسان أمر ممكن وميسور، ويقسم الغزالي الموجودات إلي نوعين: نوع خلق كاملاً ولا سبيل إلي تغييره أو تعديله مثل الكواكب وأعضاء البدن ونوع خلق ناقصاً ويمكن تكميله أو تعديله مثل طباع الإنسان، [47] وبين الغزالي أن هذا التكميل أو التعديل لا يعني تغيير طباع الإنسان تغييراً كاملاً، أو القضاء علي بعضها وإبادتها ، فلو حاولنا قمع النزعات الفطرية في الإنسان لما أمكننا ذلك ، ولأصبنا بالإخفاق فيقول الغزالي: " فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما أو قهرهما بالكلية حتى لا يبقي لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة

والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك"[48] أي أن الغزالي يطالب بتهذيب الفطرة ، وتعديل الغرائز، ويري أن كبت هذه الغرائز أو النزعات الفطرية أمر غير ممكن، وغير مرغوب فيه، وهو مناف لطبيعة الأشياء، ويري أيضاً أن بعض الغرائز سهل التعديل، وبعضها صعبة ، ويرجع ذلك إلي سببين:

الأول: "قوة الغريزة في أصل الجبلة، وامتداده مدة الوجود"[49] فهو يعتقد أن بعض الغرائز البشرية أقوى من البعض الآخر وأقدم منها وجوداً في الإنسان، فغريزة الشهوة مثلاً أقوى الغرائز وأصعبها في التهذيب، ذلك لأنها توجد في الإنسان منذ ولادته ، لكن غريزة الغضب أقل شدة من غريزة الشهوة ، وأسهل منها في التكييف والتعديل ، ذلك لأنها لا تخلق في الصبي إلا عند ما يبلغ السابعة من عمره[50]، ولا يختلف علم النفس الحديث اختلافاً كبيراً عن رأي الغزالي من هذه الناحية ، فالمقبول الآن هو أن النزعات الفطرية تتفاوت في القوة وفي القابلية للتعديل،

الثاني: أن" الخلق يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً مرضياً " [51] أي أن التدريب علي أي نوع من السلوك أو ممارسته للاعتقاد بأنه سلوك مرضي ، من شأنه أن يثبته في الإنسان،فيصير جزء من عاداته المتأصلة فيه، ثم بعد ذلك نجد أن الغزالي يقسم الأفراد من حيث قابليتهم للتهذيب إلي أربعة أقسام:

1- الشخص الجاهل "المغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل، والجميل والقبيح ، بل بقي كما فطر عليه خالياً من جميع الاعتقادات، ولم تستنم شهوته أيضاً بإتباع اللذات"[52] وهذا الشخص الجاهل بالخير والشر علي حد سواء يكون علاج خلقه أمراً ميسوراً ، ولا صعوبة فيه، فإن الوعظ والإرشاد من جانب المؤدب بالإضافة إلي العزيمة الصادقة من جانب الشخص نفسه كفيلان بإصلاح حاله، وتهذيب سلوكه،

2- الشخص الجاهل الضال: وهو الذي يعرف ما هو قبيح ومذموم ولكنه لم يألف أو يتعود العمل الصالح ، بل تبع شهواته، وأعرض عن الخير، ويري الغزالي أن تهذيب أخلاق مثل هذا الشخص أصعب من تهذيب أخلاق السابق ، فقد تضاعفت الوظيفة عليه "إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح"[53]

3- الشخص الجاهل الضال الفاسق:الذي يعتقد أن سوء الخلق هو الأمر المستحسن والمفضل، وأن ممارسة الخصال الذميمة، والاعتياد عليها إنما هو الصواب بعينه، ومثل هذا الشخص يندر إمكان تهذيبه أو إصلاح حاله.

4- الشخص الجاهل الضال الفاسق الشرير: الذي" يري الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ، ويباهي به، ويظن أن ذلك يرفع من قدره"وهذا النوع من الأشخاص لا يمكن إصلاحه أبداً .

وإن أهم ما يسترعي النظر في كتابة الغزالي عن التربية عموماً هي الطريقة التي اتبعها في التفكير في شئون التربية والتهذيب ، فلم يكتب الغزالي عن التربية بطريقة ارتجالية، بل كتب وفق فكرة معينة واضحة في ذهنه إلي درجة جعلها واضحة كل الوضوح للقارئ لكتاباته، تعليم لم يضعه اعتباطاً بل وضعه وفق خطته التي رسمها للتربية، بحيث تتماشي مع الأهداف التربوية التي وضعها، وعلي هذا الأساس نجده قد صنف العلوم وقسمها وقومها ،فنراه عندما كتب عن التربية بدأ يشرح الأغراض التي يقصدها من التعليم مسترشداً بضوء فلسفة الصوفية، والواقعية في وقت واحد ، كما أنه عندما فكر في وضع منهج للتربية فقد نبه الغزالي علي التقويم من الصغر فيكون أوقع في النفس وأدوم في الإتباع والثبات ، وقد اهتم الغزالي بتهذيب أخلاق الصبي اهتماماً بالغاً، وكتب كثيراً في هذا الصدد ومن أهم ما كتب في شأن تهذيب الصغار، أنه شبه النفس البشرية أو القلب بجسم الإنسان ، فإن كان جسم الإنسان صحيحاً

متناسق الأعضاء، فإن الجسم يكون سلماً من الأمراض ، أما إذا مرض عضو في الجسم أو أختل فإن الجسم يفقد اتزانه ويصبح سقيماً، كذلك فإن الاعتدال في الأخلاق والصفات دليل علي صحة النفس والقلب ، والانحراف في الخلق دليل علي مرض النفس وسقمها ، ويري الغزالي أن الطفل يولد " معتدلًا صحيح الفطرة " وأن أبويه يعطيانه دينهما أياً كان ، كما يتطبع الطفل بالطباع الرديئة، ويتعلم رزيل الخصال من البيئة التي يعيش فيها، ومن الطريقة التي يعامل بها ، ومن العادات التي يتعود عليها ، وكما أن جسم الطفل يكون ناقص التكوين عند الولادة " وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء "[54] وكان الدين بتعاليمه يعتبر طريقًا ممهدًا لفكر الغزالي في الاسترشاد والتهذيب في التربية، فنجد الغزالي قد وصف الدين وتهذيب السلوك وصفًا صريحًا مبنيًا علي خطة واضحة متفقة مع فلسفته وأهدافه التربوية، وتسترعي انتباه الدارسين للغزالي تلك النزعة الواقعية التي تسيطر علي تفكيره بالرغم من فلسفته الصوفية، فنجده دائمًا يتحدث عن السعي إلي سعادة الدنيا والآخرة، فقد وجهه تفكيره الديني إلي السعي وراء سعادة الآخرة ومن الجانب الآخر تفكيره الواقعي لم ينسه سعادة الدنيا، وقد رأي أن سعادة الدنيا يمكن الحصول عليها عن طريق الحياة الفاضلة، وتطهير النفس من الرذائل وحسن التعامل مع الناس، ويتفق رأيه في كيفية الحصول عل السعادة الدنيوية مع فلسفته بطبيعة الحال،فسعادة الدنيا لديه مرتبطة بالبعد عن الماديات مع عدم نسيان نواحي النفع في الحياة،

الفضائل الأخلاقية وعلاقتها بقوى النفس عند الغزالي :

يتحدث الإمام الغزالي عن الفضيلة فيري أنها "حالة كمال للنفس تنالها إذا اعتدلت قواها فلم تجنح إلى الإفراط أو التفريط وإذا كان للقوة العاقلة سياسة القوتين الأخيرتين "هذا الكمال إذا تم للنفس قربت من الله عز وجل بالمرتبة طبعاً لا بالمكان وتلك السعادة" والمتأمل في تقسيم الغزالي لقوى النفس، يساير التقسيم الأفلاطوني الذي استعاره في ما بعد مسكويه، ويربط

الغزالي بين قوى النفس وفضائِلها الثلاث، ويجعل الفضيلةَ الرابعةَ على رأسِ الفضائلِ كلِّها؛ لتحقيق التوازن والانسجام بين فضائل النفس المختلفة.

كما أننا نلاحظ، أن الغزالي يفترق إلي حد كبير عن مسكويه، في طرح فلسفته الخلقية عن الشريعة الإسلامية في المبدأ والأساس، فنرى أن الغزالي غلبت عليه النزعةُ الدينية والصوفية، واختلط بكثيرٍ من النظر الفلسفي، ويُمثِّل هذا الاتجاهَ الإمامُ الغزاليُ في كتابيه "إحياءِ علوم الدين، وميزانِ العقل،" واتجاه آخر بني نظريته علي أسس فلسفية متأثرًا تأثرًا عظيمًا بالفلسفة اليونانية، ويمثل هذا الاتجاه الكندي والفارابي وابنُ سينا و إخوانُ الصفا وابنُ مسكويه وابنُ باجه وابنُ طفيل وغيرُهم.

ويوضح الغزاليُ ذلك فيقول: ، ومجامع القوى التي لابد من تهذيبها ثلاثُ قوى، قوةُ الفكر، وقوةُ الشهوة، وقوةُ الغضب، ومهما هُذِّبتْ قوةُ الفكر، وأُصْلِحت كما ينبغي، حصلت بها الحكمة التي أخبر الله عنها في قوله تعالى: (**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**)[55]

الهوامش

[1] الغزالي :هو الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين العابدين، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الفقيه الشافعي(450هـ - 505 هـ)

[2] د/ مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ج2 ط دار المعارف ص 21

[3] المرجع نفسه، نفس الصفحة

[4] د/ جمال رجب سيدبي ،أبو البركات البغدادي وفلسفته الإلهية، دراسة لموقفه النقدي من فلسفة ابن سينا،مكتبة وهبة، القاهرة،1996م ص49.

[5] د/ الطبلاوي محمود سعد موقف بن تيمية من فلسفة بن رشد ط1 1409، 1989 مطبعة الأمانة ص 81

[6] محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام ترجم عباس محمود لجنة التأليف والترجمة والنشر ص 15

[7] د/محمد جمال الدين الفندي، الله والكون ص2 الهيئة المصرية العامة للكتاب ص25

[8] الموجود المطلق عند الفلاسفة: هو واجب الوجود الذي لا أول لوجوده وهو الله سبحانه وتعالي ومن ثم فالوجود الممكن لا بد له من الموجود الواجب ، وتلك العلاقة تمثل الفاصل بين عقيدة الألوهية السامية وبين التصورات العقلية التي ترتد إلي عالم غيبي علي قمته وجود الله عز وجل

[9] آدم عليه السلام هو أحد الأنبياء الذين أمرنا الله بمعرفتهم والإيمان بهم ،راجع الشيخ إبراهيم الباجوري، حاشية الباجوري، ط 1949م، ص38

[10] الشيخ أبي البركات أحمد بن محمد الدردير العدوى ،(1127- 1201هـ) شرح الخريدة البهية ص 516

[11] سورة الأنبياء 22

[12]د/ منصور رجب، تأملات في فلسفة الأخلاق ص 12 ط 3، 1961م

[13]المعجم الفلسفي د/ جميل صليبا ص 49 ج1 ط دار المعارف بالقاهرة

[14]راجع د/ محمد يوسف موسي ـ مباحث في فلسفة الأخلاق ـ ص 45 ط 1948 م

[15]د/عثمان عبد المنعم عيش، الظاهرة الخلقية، ص 65

[16] أبو علي أحمد بن يعقوب مسكويه، ولد عام 330هـ وتوفي 420هـ تقريباً

[17]تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه تحقيق ابن الخطيب ص41 ط الأولي

[18]إحياء علوم الدين ، أبي حامد الغزالي ص 52 ط الحلبي

[19]د/ زكي مبارك ، الأخلاق عند الغزالي ص 113

[20]د/ محمد عبد الله دراز، كلمات في مبادئ علم الأخلاق ص4

[21]سورة القلم، الآية 4

[22]سورة الشعراء الآية 137

[23]د/ منصور رجب، تأملات في فلسفة الأخلاق، ص 304، ط 3

[24] صحيح مسلم ج2 ص169 ، ط صبيح

[25] راجع الأستاذ/ أنور الجندي، مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق، ص55 ط 1 دار الاعتصام، 1977م

[26] المصدر نفسه، ص 73

[27]د/ مقداد يلجن، الاتجاه في الاسلام ، ص 47

[28] هذا بخلاف الأخلاق الوضعية الفلسفية فمصدرها الإنسان المرتبط بزمان ومكان ومن هنا تكون أخلاقه مقتصرة علي زمانها ومحددة بمكانها دون أن تدعي لنفسها مدي أوسع، ومن هنا لا يكون لها قدر من العمومية والشمول.

[29]د/ محمد عبد الرحمن بيصار، المختصر في العقيدة والأخلاق ص 109

د/ عثمان عبد المنعم عيسي، الظاهرة الأخلاقية، ص 103 ط 2

[31]د/ جمال رجب سيدبي، أبو البركات البغدادي وفلسفته الإلهية ،ص49،ط1

[32] راجع الجامع الصحيح ج 2 ص 198، صحيح مسلم ج1 كتاب الإيمان ، والسنن الكبرى للبيهقي ج1 كتاب الشهادات ص192 دائرة المعارف

[33] راجع الدكتور الأهواني المرجع السابق ص 79

[34] مسند الإمام أحمد ج2 ص 181، وسنن البيهقي ج10 كتاب الشهادات ص 192.

[35] دكتورالنساء،د الرحمن بيصار المختصر في العقيدة والأخلاق ص 110 ط الأولي

[36]سورة النساء ، الآيات 164،163- 165

[37] المفرد للبخاري ص81، ومسند الإمام أحمد 132/1كتاب الأدب.

[38] راجع دكتورة سهير فضل الله أبو وافية ، الفلسفة الإنسانية في الإسلام، ص 107

[39] راجع سيرة ابن هشام33/1

[40] سورة البقرة الآية 177

[41] سورة الأعراف الآية 33

[42] راجع تفسير البيضاوي الآية177 من سورة البقرة وسوف يتبين ذلك في موضعه من البحث بالتفصيل عن الحديث عن الفضائل العملية

[43] رياض الصالحين، باب حسن الخلق ص 273

[44] متفرقات محمد ناصر الدين الألباني"272"

[45] **من المؤلفات التي تمدنا بآراء الغزالي الأخلاقية: إحياء علوم الدين – ميزان العمل – الأربعين – جواهر القرآن – منهاج العابدين – التبر المسبوك في نصيحة الملوك – المنقذ من الضلال، المستصفى في أصول الفقه، مشكاة الأنوار، راجع: د/ زكى مبارك، الأخلاق عند الغزالي، (ص 97–98). وهناك العديد من الباحثين الذين اعتنوا بدراسة الجانب الأخلاقي عند الغزالي، كزكي مبارك في بحثه السابق، و أ/د محمد البهي في بحثه (الغزلي – فلسفته الأخلاقية والصوفية)، و أ/د عبد الكريم العثمان، في**

الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص (ص 372 – 392)، و أ/نور الدين السافى فى بحثه (نقد العقل – منزلة العقل النظرى والعقل العملى فى فلسفة الغزالى).

[46] إحياء علوم الدين ج 3 ص48

[47] ميزان العمل ص 86

[48] إحياء علوم الدين، ج3، ص 48

[49] نفس المرجع السابق ص 48

[50] قد وجدت نظرية فلسفية قديمة تقول بأن حياة الإنسان تتم في سبعة أطوار ، من الميلاد للسابعة، ومن السابعة للرابعة عشر، وهكذا حتى إذا ما بلغ الإنسان التاسعة والأربعين اكتمل النمو والحكمة أنظر كتاب " حي بن يقظان لابن طفيل"

[51] إحياء علوم الدين، الجزء الثالث ص48

[52] إحياء علوم الدين ص49

[53] المصدر السابق ص 49

[54] إحياء علوم الدين، ج 3، ص 52

[55] سورة البقرة، الآية 269

المراجع:

1- القرآن الكريم
2- صحيح البخاري
3- صحيح مسلم
4- السنن الكبرى للبيهقي
5- مسند الإمام أحمد
6- رياض الصالحين
7- تفسير البيضاوي
8- ابن منظور/ لسان العرب
9- إحياء علوم الدين
10- ميزان العمل، للغزالي
11- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام
12- سيرة ابن هشام
13- د/ محمد عبد الرحمن بيصار، المختصر في العقيدة والأخلاق
14- د/ جمال رجب سيدبي، أبو البركات البغدادي وفلسفته الإلهية
15- د/ عثمان عبد المنعم عيسي، الظاهرة الأخلاقية
16- الأستاذ/ أنور الجندي، مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق
17- د/محمد رجب،دين الفندي، الله والكون
18- د/ منصور رجب ، تأملات في فلسفة الأخلاق
19- د/ زكي مبارك ، الأخلاق عند الغزالي
20- دكتورة سهير فضل الله أبو وافية ، الفلسفة الإنسانية في الإسلام
21- د/ مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه
22- د/ محمد يوسف موسي ـ مباحث في فلسفة الأخلاق
23- د/ محمد عبد الله دراز، كلمات في مبادئ علم الأخلاق
24- د/ الطبلاوي محمود سعد موقف بن تيمية من فلسفة بن رشد